جمالية الأسلوب الحكيم وقيمته الأسلوبية في القرآن الكريم

أ. علي زواري أحمد

جامعة الشهيد حمّه لخضر الوادي – الجزائر

ملخص:

أسلوب الحكيم من الضروب البلاغية ضمن المحسنات المعنوية البديعية، وقد جعلت دراسته في القرآن الكريم لندرة الدراسة في هذه المدونة، فعملت على تبيين مفهومه من الناحية الأسلوبية، وتطرقت لأنواعه، ووقفت عند قيمته الأسلوبية لأهميته في بنية الخطاب القرآني، كما يقول عنه السكاكي: «ولهذا النوع أعني إخراج الكلام لا على مقتضى الظاهر أساليب متفننة؛ إذ ما من مقتضى كلام ظاهري إلا ولهذا النوع مدخل فيه بجهة من جهات البلاغة، على ما تنبه على ذلك منذ اعتنينا بشأن هذه الصناعة، وترشد إليه تارة بالتصريح وتارات بالفحوى، ولكل من تلك الأساليب عرق في البلاغة يتشرب من أفانين سحرها ولا كالأسلوب الحكيم فيها».

الكلمات المفتاحية: الأسلوب الحكيم؛ قيمته الأسلوبيه؛ المتلقي؛ أنواعه؛ تلقي المخاطب؛ تلقي السائل.

Abstract:

The wise method is a kind of rhetorical studies used to study Quran, due to the scarcity of studies in this holly corpus.Its aim is to define the concept of the wise method stylistically, and deals with its types, and stands at the stylistic value of its importance in the structure of the Quranic discourse, the wise method means speaking in an indirect way, which is a rhetorical phenomenon.

We try in this paper to explain the phenomenon, how it is made in the quranic discourse and its impact on the meaning .

key words: the wise method; its types ;its stylistic value; the receiver; the reception of the addressee;

مقدمة:

تعد دراسة الأساليب القرآنية من العناية الكبيرة في خدمة كتاب الله، وتجلية أوجه العظمة فيه، بإبراز معانيه، وتجلية مقاصده، والوقوف على أسراره، وجوانب إعجازه، ومعرفة المنهج القويم والأساليب المثلى التي سلكها في تلقي المخاطَبين. فهو معين لا ينضب، وكنز لا يفنى، ورغم كل الدراسات فيه بمختلف توجهاتها؛ إلا أن الغوص لا يزال مستمرا في أساليبه للكشف عن هذا الجمال القرآني المعجز.

ولا يخفى على دارس أن القرآن الكريم قد استخدم العديد من الأساليب في تطرية نشاط السامعين وإيقاظهم بغية التأثير فيهم للوصول إلى أهدافه وتحقيق غاياته، من ذلك: أسلوب التكرار، وأسلوب التقديم والتأخير، والذكر والحذف، والاستفهام والالتفات، والقَسَم والتقابل والاعتراض... ومن بين تلك الأساليب التي انتهجها القرآن الكريم ما يسمى في علم البديع بـ "أسلوب الحكيم" الذي هو مدار دراستنا في هذه المقالة، تحت عنوان: " جمالية الأسلوب الحكيم وقيمته الأسلوبية في القرآن الكريم".

وللوصول إلى المقصود واللب بشيء من التفصيل والاستفاضة دفعنا الأمر لفك العديد من إشكاليته، والمتمثلة في معرفته وبيانه من خلال القرآن الكريم، والوقوف على أنواعه وقيمتها الأسلوبية ضمن بنية الخطاب القرآني، وحتى نصل لهذه النتيجة ويتحقق الهدف المرسوم، بالإجابة عن الإشكالية المطروحة، واستيفاء المحاور المعروضة، فقد التمسنا بعض المحاور المناسبة لذلك تمثلت، في:

أولا – نشأته.

ثانيا – نماذجه من القرآن الكريم.

ثالثا – تعريفه أسلوبيا.

رابعا – أنواعه.

خامسا – قيمته الأسلوبية.

أولا – نشأته

يعد الأسلوب الحكيم عند البلاغيين ضربا من ضروب البلاغة العربية، وقد تعرض له الأولون في بداياته في مجال علم المعاني ضمن مواضيع (خروج الكلام لا على مقتضى الظاهر)[1]، ثم لما بدأ يتميز علم البديع بموضوعاته عن غيره، وبدأ التنقيب والبحث في استخراج فنونه وضمها إليه؛ أصبح أسلوب الحكيم نوعا من أنواع (المحسنات المعنوية)[2] في هذا العلم. وهو كغيره من الموضوعات والفنون يبدأ صغيرا ثم يكبر، ويمر في طريق نشأته بالعديد من المراحل والأطوار حتى يستقر على صياغته النهائية التي تجعله مستقلا ومتميزا عن غيره.

---

[1] ينظر يوسف بن أبي بكر السكاكي، أبو يعقوب (ت: 626هـ): مفتاح العلوم، ضبط وتعليق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 2، 1407 هـ – 1987 م.ص: 327.

[2] ينظر أحمد حسن المراغي: علم البديع، دار العلوم العربية، بيروت، ط: 1 سنة 1411 . 1991، ص 106. وعبد العزيز عتيق: علم المعاني والبيان والبديع، دار النهضة العربية، بيروت، ص: 601. ورفيق خليل عطوي: صناعة الكتابة (علم البيان، علم المعاني، علم البديع)، دار العلم للملايين، بيروت، ط: 1، سنة 1989، ص: 127.

وقد كانت (بداياته حين أشار له **أبو عثمان الجاحظ**)[1] (255 هـ) في كتابه "البيان والتبيين"، وذلك عند حديثه عن "اللغز في الجواب"[2] ومثّل له بإشارات تتناسب وبداياته، ومن غير أن يسميه، كما نجده أشار إليه في "باب من الكلام المحذوف ثم نرجع بعد ذلك إلى الكلام الأول" عند حديثه عن "كلام يذهب السامع منه إلى معاني أهله وإلى قصد صاحبه"[3]، وبذلك (لفت أنظار البلاغيين من بعده لهذا النوع من الكلام، وأعطاهم الأساس)[4] الذي ارتكزوا عليه في التأسيس له.

وأول من خصه بالحديث وقعّد له، **أبو يعقوب السكاكي** (626 هـ) في كتابه "مفتاح العلوم" فحدد مصطلحه بوضوح ودقة، وسماه "الأسلوب الحكيم"، وقسمه إلى نوعين، وبين كل نوع ومثّل له، وجعله فنا من فنون خروج الكلام لا على مقتضى الظاهر، وختم به الكلام عن علم المعاني، فقال: «ولهذا النوع أعني إخراج الكلام لا على مقتضى الظاهر أساليب متفننة؛ إذ ما من مقتضى كلام ظاهري إلا ولهذا النوع مدخل فيه بجهة من جهات البلاغة، على ما تنبه على ذلك منذ اعتنينا بشأن

---

[1] ينظر أحمد عبد المطلب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ص: 119/2. وأحمد حسن المراغي: علم البديع، ص: 106.

[2] عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الجاحظ، أبو عثمان (ت: 255هـ): البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، سنة: 1423 هـ، ص: 2/ 100.

[3] أحمد عبد المطلب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ص: 2/ 193.

[4] ينظر عبد العزيز عتيق: علم المعاني والبيان والبديع، ص: 601.

هذه الصناعة، وترشد إليه تارة بالتصريح وتارات بالفحوى، ولكل من تلك الأساليب عرق في البلاغة يتشرب من أفانين سحرها ولا كالأسلوب الحكيم فيها»[1].

وبعد **السكاكي** ذكر الخطيب **القزويني** (739هـ) في كتابه "الإيضاح في علوم البلاغة" أن **عبد القاهر الجرجاني** (471هـ) تعرض له تحت مسمى "المغالطة"، فقال: «وسماه الشيخ عبد القاهر مغالطة»[2]، ولكن بالرجوع لكلام **عبد القاهر الجرجاني في** "دلائل الإعجاز" لا نجد فيه ما يدل على صريح التسمية، ولا حتى الحديث عن هذا الموضوع، كل ما في الأمر أنه ذكر مثالا من أمثلة أسلوب الحكيم في "فصل: الاستفهام له التقديم والصدارة وتقديم ما يقارنه من اسم وفعل" وحين وصل للحديث عن تقديم لفظي "مثل" و"غير" . وقد كان الحديث عليهما . ذكر كلمة "مغالطة" عرضا أثناء ذلك.

ومن المعلوم أن المثال الواحد قد تتجاذبه العديد من الموضوعات، ولذا يصعب علينا من خلال هذه الكلمة التي ذكرها الوقوف على مفهومه وقصده من ذلك، وهذا نص كلامه حيث يقول: «كقول الذي قال له الحجاج: «لأحملنك على الأدهم»، يريد القيد، فقال على سبيل **المغالطة:** «ومثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب» وما أشبه ذلك مما لا يقصد فيه بـ «مثل» إلى إنسان سوى الذي أضيف

---

[1] السكاكي: مفتاح العلوم، ص: 327.

[2] جلال الدين القزويني، المعروف بخطيب دمشق (ت: 739هـ) الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل – بيروت، ط: 3، 2/ 95.

إليه، ولكنهم يعنون أن كلّ من كان مثله في الحال والصفة، كان من مقتضى القياس وموجب العرف والعادة أن يفعل ما ذكر، أوأن لا يفعل»[1].

ثانيا – نماذج في القرآن الكريم

لقد حاولت تتبع هذا الأسلوب في القرآن الكريم من خلال الكتب البلاغية التي تحدثت عنه فلم أجد سوى بعض النماذج القرآنية التي لا تتعدى أصابع اليد الواحدة، لأن الكتب البلاغية وإن تناولته لم تتجاوز الحديث عن تعريفه الاصطلاحي، وبيان نوعيه والتمثيل لهما ببعض الأمثلة التي تتكرر في الغالب من مُؤَلَف لآخر، وهي: من الشعر البيتان المنسوبان لحاتم الطائي، ومن النثر محاورة **الحجاج** و**ابن القبعثري**، وأما من القرآن فآية الأهلة، وآية النفقة، وكلاهما من النوع الثاني من أنواع أسلوب الحكيم الذي هو تلقي السائل بغير ما يتطلب، مما جعل المعلومات حوله ضئيلة وموجزة ومكتفية ببيانه، كما هو الشأن في العديد من مواضيع البلاغة وخاصة مواضيع البديع، رغم كثرة أمثلته وتعدد جوانبه في الاستعمالات المختلفة، ولذلك قمت بعملية استقراء له في القرآن الكريم مستعينا بالكتب التي اهتمت بدراسة الجانب البلاغي في القرآن الكريم، ومنها كتب التفسير، وتوصلت لأربعين نموذجا منه، لا يمكن كتابتها جميعا فالمقام لا يسمح بذلك لكن سأشير لمواطنها فقط، وهي كالتالي على حسب ترتيبها في السور القرآنية:

---

[1] عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ات: 471هـ): دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط:1،1422هـ – 2001 م، ص 95، 96.

[سورة البقرة: (26، 27)، (189)، (215)] – [سورة الأنعام: (37)، (151)] – [سورة الأعراف: (59 – 62)، (65– 68)، (75)، (164)، (187)] – [سورة الأنفال: (1)، (19)] – [سورة التوبة: (61)، (95)، (96)، (124، 125)] – [سورة يونس: (20)، (48 – 49)، (53)] – [سورة الرعد: 31] – [سورة النحل: (101، 102)] – [سورة الإسراء: (50، 51)، (85)] – [سورة مريم: (7 – 9)، (20، 21)، (77، 80)] – [سورة النمل: (45، 46)، (71، 72)] – [سورة سبأ: (29، 30)] – [سورة يس: (48، 49)، (52)، (77 – 79)] – [سورة الذاريات: (12، 14)] – [سورة المنافقون: (8)] – [سورة المعارج: (3،1)، (36 – 38)] – [سورة القيامة: (5 – 12)] – [سورة النازعات: (42 – 46)] – [سورة الكوثر: (3،1)] – [سورة المدثر: (31)].

ثالثا – تعريفه أسلوبيا

رغم جهدي المتواضع وبحثي المتواصل في الموضوع، إلا أنني لم أجد من عرّف الأسلوب الحكيم من الناحية الأسلوبية، سوى ما كان من الأستاذ **عبد القادر عبد الجليل** في كتابه "الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية" حيث قام ببيان مفهوم هذا الفن البديعي من الناحية الأسلوبية، فقال: «هو بنية تقوم على أسلوب صياغي يعتمد فيه السياق على المحاورة وتؤسس بنيتها على أساس مخالفة مقتضى الظاهر بواسطة بدائل البث التلقائي التي يعتمد المنشئ ذات الدرجات اللونية المتقاربة،

والمخالفة في هذه البنية تؤدي إلى ناتج دلالي يدور في منطقة العمق، ويكمل دورته مارا بمنطقة السطح »[1].

وهذا التعريف الذي ذكره يشتمل على خمس نقاط، هي:

. أن الأسلوب الحكيم بنية تركيبية كباقي البنى، لكن تميزها صياغة الأسلوب.

. السياق في هذه البنية يعتمد على المحاورة بين المخاطِب والمخاطَب أوبين السائل والمسئول.

. تبنى هذه البنية على مخالفة مقتضى الظاهر (العدول أوما يسمى بالانزياح).

. يستعمل المخاطِب في هذه المخالفة البدائل (اللفظية والمعنوية) الواردة من غير تكلف والكفيلة بتحقيق الغرض من المخالفة، وتكون متقاربة في الظاهر، وتختلف في العمق.

. الناتج عن المخالفة دلالتان: واحدة في البنية العميقة لا تظهر للوهلة الأولى تحدث بسبب التخالف بين مقصد المخاطِب والمخاطَب، وأخرى سطحية ظاهرة تحدث بسبب الانزياح بالصياغة، كما سنبينه عن قريب.

---

[1] عبد القادر عبد الجليل: الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية، دار الصفاء، عمان، ط/1، سنة: 2002م، ص: 560.

رابعا – أنواعه

عندما نريد تحديد أنواعه فإنها تظهر من خلال تعريفه الذي أطلقه عليه البلاغيون، ولعل أجمع تعريف هوما عرّفه به **أبو يعقوب السكاكي** (ت: 626هـ) بقوله: «وهو تلقي المخاطَب بغير ما يترقب، أو السائل بغير ما يتطلب»[1].

فمن هذا التعريف تبيّن لنا أنه على نوعين، وهذا ما ذهب إليه البلاغيون جميعا في حديثهم عن هذا الفن البلاغي، وهما:

1) ـ تلقي المخاطَب بغير ما يترقب:

وهو مجيء الخطاب دون سؤال وجواب، حيث يُتلقى المخاطَب بغير ما يتوقع أو يترقب، بحمل كلامه على غير ما يريد ويقصد، لغرض ما يقصده المخاطِب، ومن أمثلة ذلك:

قوله – تعالى –: ﴿**وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ سورة التوبة، الآية: 61.

جاء في روح المعاني **للألوسي**: «عن محمد بن إسحاق أنها نزلت في رجل من المنافقين يقال له نبتل بن الحارث، وكان رجلا آدم أحمر العينين أسفع الخدين مشوه الخلقة وكان ينم حديث النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى المنافقين فقيل له: لا تفعل. فقال: إنما محمد صلّى الله عليه وسلّم أذن من حدثه شيئا صدقه نقول شيئا

[1] السكاكي: مفتاح العلوم، ص: 327.

ثم نأتيه ونحلف له فيصدقنا»[1]. فجاء الرد من القرآن بغير ما يترقب هؤلاء، بأن محمدا أذن كما قلتم، لكنه على غير ما تقصدون فهو أذن خير لكم.

قال **ابن عاشور**: «وهومن الأسلوب الحكيم الذي يحمل فيه المخاطِب كلام المتكلم على غير ما يريده، تنبيها له على أنه الأولى بأن يراد... فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يبلغهم ما هو إبطال لزعمهم من أصله بصرف مقالتهم إلى معنى لائق بالرسول، حتى لا يبقى للمحكي أثر، وهذا من لطائف القرآن»[2].

ومن أمثلته ما نزل في المنافقين عندما تخلفوا عن غزوة تبوك، ثم جاءوا لرسول الله يطلبون العفو والصفح والمجاوزة عما فعلوه من جرم حين تخلفوا في آخر لحظة عن الخروج للقتال، وتركوا رسول الله يواجه أعداءه من دونهم، قال تعالى: ﴿**سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ سورة التوبة، الآية: 95.

فهم يطلبون الإعراض عن مؤاخذتهم أي عن عتابهم وتقريعهم على تخلفهم، ولا يقصدون تطييب خواطر المسلمين ولكن أرادوا التملص من مسبة العتاب ومرارته، فتلقاهم القرآن بغير ما يترقبون، وحمل كلامهم على غير ما يريدون، وأمر

---

[1] شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت: 1270هـ): روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المحقق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، ط/1، سنة: 1415 هـ، 315/5.

[2] محمد الطاهر بن عاشور (ت: 1393هـ): التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدار التونسية للنشر – تونس، سنة: 1984 هـ، 10/ 242.

بالإعراض عنهم تماما، لكن لا إعراض رضا ومجاوزة وعدم المؤاخذة كما طلبوا؛ بل إعراض اجتناب ومقت وسخط، وإعراض مجافاة وقطيعة وعزلهم عن دائرة المؤمنين الصادقين، كما ينبئ عنه التعليل بقوله: ﴿**إِنَّهُمْ رِجْسٌ**﴾ سورة التوبة، الآية: 95.

قال **ابن عاشور**: «وهذا ضرب من التقريع فيه إطماع للمغضوب عليه الطالب بأنه أجيبت طلبته، حتى إذا تأمل وجد ما طمع فيه قد انقلب عكس المطلوب فصار يأسا، لأنهم أرادوا الإعراض عن المعاتبة بالإمساك عنها واستدامة معاملتهم معاملة المسلمين، فإذا بهم يواجهون بالإعراض عن مكالمتهم ومخالطتهم وذلك أشد مما حلفوا للتفادي عنه. فهم من تأكيد الشيء بما يشبه ضده»[1].

يقول **عبد الرحمان حبنكة الميداني**: «فإذا حملنا قول الله عز وجل ﴿**فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ**﴾ على معنى الإعراض الدال على المجافاة والقطعية وعزلهم عن دائرة المؤمنين الصادقين، كان من الأسلوب الحكيم، إذ جاء فيه حمل طلبهم على غير ما يقصدون به»[2].

ومن أمثلته ما جاء في "سورة الرعد": ﴿**وَلَوأَن قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوكلمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ**

[1] محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، 11/ 09.

[2] عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، 501/1.

أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ سورة الرعد، الآية: 31.

من سبب نزولها ندرك نوع أسلوب الحكيم فيها، فقد أخرج **ابن أبي حاتم وابن مردويه** عن **عطية العوفي**، قال: «قالوا للنبي – صلى الله عليه وسلم – لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيي الموتى لقومه، فأنزل الله: ﴿**وَلَوأن قُرْآناً**﴾ الآية»[1].

فمن خلال هذا يتبيّن لنا أن مطالبهم التي طلبوها من رسول الله تمثلت في ثلاثة أشياء:

- إبعاد الجبال، قصد توسع أراضيهم لأن مكة محصورة بالجبال.
- قطع الأرض، حتى يسهل عليهم التنقل فهم أصحاب الرحلتين بالشتاء والصيف.
- إحياء الموتى، حتى يسألوا من مات من أسلافهم الذين قد مضوا من قبلهم.

وهذه معجزات وطلبهم إيّاها على سبيل التهكم والسخرية لا غير، لذا خاطبهم الله بغير ما يترقبون وبخلاف قصدهم لبيان فساد رأيهم وغلوهم في المكابرة والعناد وتماديهم في الضلالة، لأنه لوكان كتاب من الكتب السالفة اشتمل على أكثر من

[1] عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: 911هـ): لباب النقول في أسباب النزول، ضبط وتصحح: أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، ص: 117.

الهداية، وكان مصدرا لإيجاد العجائب والمعجزات لكان هذا القرآن، ولكنه ليس كذلك، فهذا القرآن لا يتطلب منه الاشتمال على تلك المطالب والمعجزات؛ فذلك ليس من سُنن الكتب السماوية، إنما هذه المعجزات من أمر الله ينزّلها متى شاء تأييدا لرسله، فهو كما أنزل الكتاب للهداية، قادر على أن ينزل المعجزات تأييدا لرسله وتحديا لهؤلاء المشركين إن شاء ومتى شاء بالصورة التي شاء، ولا يحتاج سؤالهم إياه بأن ينزلها.

قال **ابن عاشور**: «فأمر الله نبيئه بأن يقول هذا الكلام إجراء لكلامهم على خلاف مرادهم على طريقة الأسلوب الحكيم، لأنهم ما أرادوا بما قالوه إلا التهكم، فحمل كلامهم على خلاف مرادهم تنبيهاً على أن الأولى بهم أن ينظروا هل كان في الكتب السابقة قُرآن يتأتى به مثل ما سألوه»[1].

ومن أمثلته قوله – تعالى –: ﴿**وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾ سورة النحل، الآيات: 101، 102.

جاء عن **ابن عباس** – رضي الله عنه – أنه قال: «كان إذا نزلت آية فيها شدة ثم نزلت آية ألين منها يقول كفار قريش: والله ما محمد إلا يسخر بأصحابه، اليوم يأمر بأمر وغدا ينهى عنه، وأنه لا يقول هذه الأشياء إلا من عند نفسه»[2].

---

[1] محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، 144/13.

[2] المرجع نفسه، 14/ 281.

قال **ابن عاشور**: «وهذه الكلمة أحسن ما قاله المفسرون في حاصل معنى هذه الآية»[1].

فكفار قريش يعتقدون أن محمدا – عليه الصلاة والسلام .– كاذب مختلق على الله، متقوّل عليه بما لم يقل، حيث يزعم أنه أمره بشيء من قبل الله ثمّ يزعم أنه أمره بخلافه، وأنه لا يثبت على أمر، وأن هذا التبديل أو النسخ والتغير يزلزل من آمن به، ويقصدون بذلك الطعن فيه وفي القرآن، وزلزلة قلوب أصحابه لكي لا يثبتوا على تصديقه والإيمان به. فتلقاهم القرآن بخلاف قصدهم وبغير ما يترقبون وبغير ما يتوقعون وحمل كلاهم على ظاهره بأن التبديل حاصل، وأن الزلزلة في القلوب حاصلة، ولكن بنقيض مقصودهم، فأبطل مرادهم ورد دعواهم عليه أنه مفتر بطريقة النقض؛ وأيضا رد دعواهم على أن تبديل الآيات يزلزل المؤمنين، ونقلهم لشيء آخر لم يقصدوه وهو الحديث عن مُنَزِّل هذه الآيات سبحانه وتعالى، والحكمة التي أرادها من ذلك التبديل في الآيات، والتي منها تثبيت المؤمنين والتخفيف عنهم ورفع الحرج عليهم وإرشادهم، وتبشيرهم بالخير بدل زلزلتهم كما توقع الكافرون، وفي ذات الوقت فإن هذا التبديل والنسخ يزلزل هؤلاء الكفار ويغيظهم، وبهذا قلب قصدهم ورده عليهم، قال **النسفي** في تفسيره: «والتقدير:

[1] المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

تثبيتاً لهم وإرشاداً وبشارة للمسلمين، وفيه تعريضا بحصول أضداد هذه الخصال لغيرهم»[1].

وقال **الألوسي:** «تعريضا بأنهم متزلزلون ضالون موبخون منذرون بالخزي والنكال واللعن في الدنيا والآخرة وأن عذابهم في خلاف ذلك ليزيد في غيظهم وخنقهم»[2].

وبهذا الأسلوب الحكيم حمل كلامهم على خلاف مرادهم تنبيها على أن المفتري والمتزلزل غير ما عنوه من كلامهم. فإذا كان الله أعلم بما ينزل وهم لا يعلمون ذلك فما بالهم يتهمون محمدا – صلى الله عليه وسلم – بالافتراء لأجل التبديل والنسخ، والله أراد بذلك مصلحة عباده، مراعاة لحالهم ولتثبيتهم على دينه، لا كما يزعم الكفار أن محمدا يخدعهم وهذا التبديل يزلزلهم، وبهذا الأسلوب الحكيم أثبت عكس مقصودهم، وقلب نقيضه لهم.

ومن أمثلته ما جاء في كتابه "البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها"[3] من قول الله – عز وجل – حاكيا قول المنافقين في غزوة بني المصطلق: ﴿**يَقُولُونَ**

---

[1] عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي أبو البركات: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تحقيق: مروان محمد الشعار، دار النفائس . بيروت، سنة: 2005م، 2/ 232.

[2] شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت: 1270هـ): روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، ط / 1، سنة: 1415 هـ، 7/ 468.

[3] عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، 500/1.

لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سورة المنافقون، الآية: 8.

فهذا الرد في الآية كان بطريق أسلوب الحكيم، حيث يتلقى الله المخاطَبين بغير ما يترقبون، وعلى رأسهم كبير المنافقين عبد الله بن أبي ابن سلول؛ لأنهم قصدوا بالأعز أنفسهم، وبالأذل رسول الله والمؤمنين، ورتبوا على ذلك الإخراج من المدينة بعد الرجوع من الغزوة، أي أنهم سيخرجون رسول الله ومن معه حين وصولهم المدينة لأنهم أذلة ويستحقون ذلك، فتلاقهم القرآن بغير ما يترقبون، وعلى غير ما قصدوا، فخيّب صنيعهم، بحمل مقالهم على ظاهره، بأن هناك عزيز وهناك ذليل، ومن حق العزيز أن يخرج الذليل، لكن على خلاف مرادهم، بأنهم هم الأذلة ورسول الله ومن معه هم الأعزة، فإن كنتم تريدون بأن يخرج العزيزُ الذليلَ فرسول الله سيخرجكم منها، تنبيها على أنه كان ينبغي لههم أن يقصدوا هذا المعنى.

قال **ابن عاشور**: «إن كان الأعز يخرج الأذل فإن المؤمنين هم الفريق الأعز. وعزتهم بكون الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم وبتأييد الله رسوله صلى الله عليه وسلم وأولياءه لأن عزة الله هي العزة الحق المطلقة، وعزة غيره ناقصة، فلا جرم أن أولياء الله هم الذين لا يقهرون إذا أراد الله نصرهم ووعدهم به. فإن كان إخراج من المدينة فإنما يخرج منها أنتم يا أهل النفاق»[1].

[1] محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، 28/ 249.

ونختم هذا النوع من أسلوب الحكيم بما جاء في "سورة الكوثر"، حيث يقول تعالى: ﴿**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ**﴾ سورة الكوثر، الآية: 3.

قال **ابن عباس** – رضي الله عنه –: «نزلت في العاص بن وائل، وذلك: أنه رأى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يخرج من المسجد، وهو يدخل، فالتقيا عند باب بني سهم، وتحدثنا، وأناس من صناديد قريش في المسجد جلوس. فلما دخل العاص، قالوا له: من الذي كنت تحدث؟، قال: ذاك الأبتر، يعني رسول الله . صلى الله عليه وسلم .. وكان قد توفي قبل ذلك عبد الله بن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وكان من خديجة، وكانوا يسمون من ليس له ابن: أبتر، فأنزل الله تعالى هذه السورة»[1].

ففي الآية حَمَل القرآن صفة الأبتر التي قالها العاص بن وائل للنبي – صلى الله عليه وسلم – على ظاهرها، كما رأينا في المثال السابق حين حمل لفظة الأعز والأذل على ظاهرهما، ولكن بخلاف مراده وبغير ما يترقب، على أنه هو الأبتر بمعنى الذي لا خير فيه، دون المعنى الذي عناه هوفي لمز النبي – صلى الله عليه وسلم – بأنه لا عقب له، وبهذا نفاها الله عن النبي تسلية له، لأن انقطاع الولد الذكر ليس بترا، ولا أثر له في كمال الإنسان، وإنما الأبتر من قطع منه الخير.

[1] علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي، أبو الحسن (ت: 468هـ): أسباب نزول القرآن، تحقيق: كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية – بيروت، ط/ 1، سنة: 1411هـ، ص: 494.

قال **ابن عاشور**: «لما كان وصف الأبتر في الآية جيء به لمحاكاة قول القائل: «محمد أبتر» إبطالا لقوله ذلك، وكان عرفهم في وصف الأبتر أنه الذي لا عقب له، تعين أن يكون هذا الإبطال ضربا من الأسلوب الحكيم وهو تلقي السامع بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيها على أن الأحق غير ما عناه من كلامه»[1].

وبهذا المثال ننهي النوع الأول من أسلوب الحكيم الذي هو "تلقي المخاطَبَ بغير مما يترقب" وننتقل للنوع الثاني منه، والذي هو:

2) ـ تلقي السائل بغير ما يتطلب:

وذلك بتنزيل سؤال السائل منزلة غيره، أي يعدل في الجواب عن السؤال ويجيب عن سؤال لم يسأله السائل، تنبيها على أنه الأولى أو المهم له أن يسأل عن هذا بدل السؤال الذي طرحه، أو يزيد في الجواب أو ينقص عمّا يتطلبه السائل، لحكمة ما أو لغرض بلاغي يقتضيه المقام. ومن أمثلته

قوله – تعالى –: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ سورة البقرة، الآية: 189.

في الآية نراهم قد سألوا عن الأهلة، فقالوا: «ما بال الهلال يبدو دقيقا مثل الخيط ثم يتزايد قليلا قليلا حتى يمتلئ ويستوي ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما

[1] المرجع السابق،30/ 577.

بدأ؟»[1]، (أي سألوه عن السبب الطبيعي والعلة العلمية لتغيير منازل القمر، فأجاب القرآن ببيان فائدة تغيير منازل القمر... لأن مثل حالهم لا يعنيهم من تغيير منازل القمر إلا ما ينتفعون به، أما المعرفة العلمية، فإن القرآن الكريم لم يفسر مظاهر الكون تفسيرا علميا كاشفا، وإنما ترك هذه الجهود للبشر، ومعاناتهم العلمية بعد ما هداهم إلى التفكير، وأوجب عليهم النظر في ملكوت الله)[2].

فاللائق بهم أن يتعلموا المواقيت فهم بحاجة إليها في عباداتهم، ولذا جاء الجواب بغير ما يتطلبون وبخلاف سؤالهم وقصدهم، فنزل السؤال عن أحوال الهلال منزلة السؤال عن فائدتها ووظيفتها الحياتية فكانت الإجابة: ﴿**قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ**﴾ سورة البقرة، الآية: 189.

قال **بهاء الدين البغدادي**: «أعلم الله عزّ وجلّ أنه جعل ذلك ليعلّم الناس أوقاتهم فيما فرض عليهم من حجّهم وعدّة نسائهم وجميع ما يريدون علمه مشاهرة، لأنّ هذا أسهل على الناس من حفظ عدد الأيام، يستوي فيه الحاسب وغيره»[3].

وبعد كل هذا زادهم فائدة هم بحاجة إليها، وهذا ما يقتضيه أسلوب الحكيم – أيضا – لأنها تتعلق بالمواقيت والحج والمقام مناسب لها، وهوأن حقيقة البر تقوى الله تعالى وليس اجتناب دخول البيوت من أبوابها أثناء الإحرام، قال حمزة العلويّ:

---

[1] القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، 2/ 95.

[2] ينظر محمد محمد أبو موسى: خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، ص: 271.

[3] محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، أبو المعالي، بهاء الدين البغدادي (ت: 562هـ): التذكرة الحمدونية، دار صادر، بيروت، ط / 1، سنة: 1417 هـ، 7/ 353.

«نُقِل في الحديث أن ناسا كانوا إذا أحرموا لم يدخل أحدهم بيتا ولا خيمة ولا خباء من باب، بل إن كان من أهل المدر نقب نقبا من ظاهر البيت يدخل منه، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخيمة أو الخباء، فقيل لهم: ليس البر تحرّجكم من دخول البيت، ولكن البر من اتقى محارم الله»[1].

وأما آية النفقة فهي قوله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**﴾ سورة البقرة، الآية: 215.

قال **السكاكي:** «سألوا عن بيان ما ينفقون فأجيبوا ببيان المصرف»[2]؛ حيث أمر (الله رسوله أن يجيبهم عن الذين ينبغي أن توجه لهم النفقة، إشارة إلى أنه كان ينبغي لهم أن يسألوا عمن ينبغي أن توجه لهم النفقة، أما الشيء الذي ينفقون منه ومقدار ما ينفقون فيعم كل ما يصلح للإنفاق منه، وما وراء حد الزكاة المفروضة هومن التطوع المفتوح الذي لا يسأل عن حد له)[3].

وبهذا العدول في الجواب تنبيه للسائل على (أنه ليس المهم في الإنفاق هوما ينفق، وإنما المهم أن يصرف في جهات شرعية، وأن يقع موقعه من البر والنفع)[4].

---

[1] يحيى بن حمزة العلويّ: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، 2/ 28.

[2] السكاكي: مفتاح العلوم، ص: 327. والقزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، 2/ 95.

[3] ينظر عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، 502/1.

[4] ينظر محمد محمد أبو موسى: خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، ص: 271.

وعليه (ينزل سؤال السائل منزلة سؤال غير سؤاله لتوخي التنبيه له بألطف وجه على تعديه عن موضع سؤال هو أليق بحاله أن يسأل عنه أو أهم له إذا تأمل)[1].

ومن أمثلته قوله – تعالى –: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً**﴾ سورة الأعراف، الآية: 187.

السائلون هم أهل الشرك من قريش، يطلبون تحديد وقت فناء العَالَم الدنيوي، عنادا وتحديا وتهكما وسخرية، استبعادًا لوقوع الساعة، وتكذيبًا بوجودها، ومقتضى الظاهر في الجواب العادي أن يقول لهم: وقتها كذا، أي يحدد لهم الوقت المعين لذلك، ولكن عدل في الجواب بخلاف ما يتطلبون، لبيان خطئهم في توجيههم السؤال إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بناء على زعمهم أنه عالِم بها، أوأن العلم بذلك من مقتضيات الرسالة، فبيّن لهم الخطأ الذي وقعوا فيه في السؤال ثمّ أعلمهم أن المسئول عنها هو الله تعالى، وبذلك وجَّهَهُم لما هو أهم وأولى من سؤالهم وهو الاستعداد لها، لأنها تأتي فجأة وعلى حين غفلة.

قال **الكرماني**: «إن هذا الجواب من الأسلوب الحكيم، أي دعوا السؤال عن وقت القيامة الكبرى فإنها لا يعلمها إلا الله، واسألوا عن الوقت الذي يقع فيه

[1] ينظر السكاكي: مفتاح العلوم، ص: 327.

انقراض عصركم فهو أولى لكم ; لأن معرفتكم تبعثكم على ملازمة العمل الصالح قبل فوته ; لأن أحدكم لا يدري من الذي يسبق الآخر»[1].

ومن الأمثلة كذلك، قوله – تعالى –: ﴿**وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ**﴾ سورة يونس، الآية: 53.

المستنبئون هم أهل قريش يسألون عن العذاب الذي ينتظرهم مما وعدهم به النبي –عليه الصلاة والسلام– هل هو حق وسيقع أم هو مجرد كلام؟!، فهذا ظاهر سؤالهم، ولكنهم في الحقيقة لم يسألوا من أجل معرفة تلك الحقيقة وإثباتها؛ مما أخبرهم به النبي، فقد تقررت هذه الحقيقة عندهم قبل هذه الآية من نفس السورة، ولكنهم ينكرون ثبوتها ويسألون استهزاء وإنكارا ودفعا لها، من غير قصد في طلب الإجابة، فالشخص السائل الذي دفعهم للسؤال كما ذكره المفسرون هو اليهودي حييَّ بْنَ أَخْطَب حين قدم مكة، وهومن أحبار اليهود ويعلم أن النبي حق، ولهذا أجيبوا بخلاف مرادهم، بحمل سؤالهم على ظاهره قصد الإثبات ومع الزيادة في الجواب بغية التنبيه على أنه إذا جاء ما تسألون عنه فلن تفلتوا منه ولن تعجزوا الله في إلحاقه بكم، فالأولى بكم والأهم لكم أن تقروا بهذه الحقيقة وتستعدوا لها بالتصديق والعمل.

[1] محمد رشيد بن علي رضا (ت: 1354هـ): تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة: 1990م، 9/ 387.

قال **ابن عاشور**: «واستعملوا الاستفهام تَبَالُهًا، ولذلك اشتمل الجواب المأمور به على مراعاة الحالتين فاعتبر أولا ظاهر حال سؤالهم فأجيبوا على طريقة الأسلوب الحكيم بحمل كلامهم على خلاف مرادهم تنبيها على أن الأولى بهم سؤال الاسترشاد تغليطا لهم واغتناما لفرصة الإرشاد بناء على ظاهر حال سؤالهم، ولذلك أكد الجواب بالتوكيد اللفظي إذ جمع بين حرف إي وهو حرف جواب يحقق به المسئول عنه، وبين الجملة الدالة على ما دل عليه حرف الجواب، وبالقسم، وإن، ولام الابتداء، وكلها مؤكدات»[1].

ومن أمثلته هذا النوع – أيضا – ما جاء في "سورة الإسراء" من السؤال عن الروح: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ سورة الإسراء، الآية: 85. أخرج **الترمذي** عن **ابن عباس**، قال: «قالت قريش لليهود علمونا شيئا نسأل هذا الرجل، فقالوا سلوه عن الروح فسألوه فأنزل الله ويسألونك عن الروح»[2].

فمن سبب النزول ندرك أن قريشا تسأل تعنتا وتكبرا وإفحاما عن حقيقة الروح وبيان ماهيتها، فالروح يعرف كل أحد بوجه الإجمال أنها حالة وموجودة فيه، فأُمِر النبي – صلى الله عليه وسلم – بأن يجيبهم بخلاف مرادهم، وعلى غير ما يتطلبون، فقد سألوا عن الماهية فقط، فأجيبوا عن محدث هذه الماهية (وهو الله عز وجل)، وعن مقدار علمهم مع علم الله، وهذا العدول يرجع لسببين هما:

[1] محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، 11/ 196.

[2] السيوطي: لباب النقول في أسباب النزول، ص: 126.

أولهما: أن الروح من أمر الغيب الذي استأثر الله به ولم يُعْلِم به أحدا، فعقول الناس قاصرة عن فهم حقيقة الروح، وكيفية اتصالها بالبدن وكيفية انتزاعها منه وفي مصيرها بعد ذلك الانتزاع، فأجيبوا بأن الروح من أمر الله، أي أنه كائن عظيم من الكائنات المشرفة عند الله، ولا تقدروا على بلوغه، فالأولى لكم عدم السؤال عنه وأن تشتغلوا بما هو أهم مثل الاشتغال بكتاب الله والانتفاع به وتهذيب هذه الروح وربطها بخالقها، لذا اقتضت الحكمة سد طريق معرفتها.

و**ثانيهما:** (يُعْدَل عن الجواب أصلا إذا كان قصد السائل التعنت، كما هوفي سؤالهم عن الروح)[1]. فالحكمة تقتضي ترك البيان قصد النهي عن السؤال في مثل هذه الأمور الغيبية. قال **الألوسي:** «وهومن الأسلوب الحكيم»[2].

ونختم بهذا المثال الذي ورد في "سورة يس"، في قوله – تعالى –: ﴿**قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا؟ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ**﴾ سورة يس، الآية: 52.

السؤال وارد على لسان الكفار يوم القيامة عندما ينفخ في الصور وتبعث الخلائق من قبورها لأرض المحشر، حينها يقول هؤلاء وهم في حسرة وندامة: ﴿**مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا؟**﴾ سورة يس، الآية: 52. ويقصدون بالمرقد القبر، وبهذا هم

---

[1] ينظر أيوب بن موسى، أبو البقاء: الكليات، ص: 793.

[2] الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، 8/ 146.

يسألون ليعلموا من الفاعل الذي فعل ذلك، بحيث أخرجهم من قبورهم وبعثهم أحياء من جديد بعد ما ماتوا؟!.

فمقتضى الظاهر في الجواب العادي حين الإجابة عن سؤالهم: من بعثنا؟ أن يقال لهم: الذي بعثكم هو الله، ولكن عدل عن ذلك الجواب بطريق أسلوب الحكيم، فأجيبوا بخلاف مرادهم وبغير ما يتطلبون، بصرفهم من الباعث الذي بعثهم من قبورهم إلى البعث ذاته الذي توعدهم الله به وما ينتظرهم فيه من أهوال، فليست القضية مجرد استيقاظ من نوم كما تعتقدون؛ بل الأمر أكبر من ذلك، وأيضا (ليس بالبعث الذي عرفتموه وهو بعث النائم من مرقده حتى يهمكم السؤال عن الباعث، أن هذا هو البعث الأكبر الذي وعده الرحمن في كتبه المنزلة على لسان رسله الصادقين)[1].

وبهذا صرف الجواب عما يطلبون فلم يجابوا عن الذي بعثهم، وإنما أجيبوا عن البعث ذاته الذي وعدهم الله به، والحكمة من العدول في الجواب لأنه يحمل التقريع والتوبيخ وبث الحسرة والندامة على تكذيبهم به في الحياة الدنيا، وفيه أيضا من التنبيه بأن الذي يهمكم هو السؤال عن البعث الأكبر وما ينتظركم فيه من الهول والفزع دون الباعث، لأنكم بعثتم فلا داعي للاشتغال بما فات واسألوا عما هو آت.

وبعد بيان نوعيه من خلال النماذج القرآنية ننتقل لبيان قيمته الأسلوبية.

[1] ينظر نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تحقيق: الشيخ زكريا عميران، دار الكتب العلمية – بيروت، ط/1، سنة: 1416هـ – 1996م، 5/ 540.

خامسا – قيمته الأسلوبية

عندما نتتبع كل المواضع التي ورد فيها الأسلوب الحكيم في القرآن الكريم، فإن القيمة الأسلوبية لهذا الفن البديعي تكمن في التخالف الحاصل بين قصد المتلقي وبين ما يريده الملقي، بحمله لكلام المتلقي من الدلالة الظاهرة إلى أخرى عميقة مخالفة لقصده ومراده، مراعيا الحال والموقف، ليحدث بذلك مفاجأة تؤثر في المتلقي تؤدي إلى إثارته وشد انتباهه فتصرفه عن الدلالة الظاهرة التي يقصدها نحو الدلالة العميقة المقصودة التي يريدها الملقي.

كما أن تلقي السائل بغير ما يتطلب؛ ينزاح بالصياغة من ظاهرها إلى ما هو أولى وأهم، فيندفع السائل لمعرفة أسباب هذا الانزياح وأوجهه فتتكثف الدلالة في العمق، فينطلق في عملية ذهنية للبحث عن المطلوب ليصل إلى مقصد المتكلم، فيكسب الأسلوب بذلك قيمته الأسلوبية.

هكذا نرى كيف تتجلى القيمة الأسلوبية لأسلوب الحكيم من حيث أنه يثير المتلقي ويوجه اهتمامه من البحث عن الجواب إلى التفكير في فحوى الجواب، فيساعده ذلك على معرفة المطلوب منه، ويرتقي به من مجرد السؤال إلى اكتشاف المعرفة وامتلاك مهارات التساؤل في البحث عن اللائق والأهم.

كما أن مما يبرز القيمة الأسلوبية لأسلوب الحكيم في القرآن الكريم أنه يعمل على تلقين المعرفة وإيقاظ الوعي وزيادة الفهم وتنشيط الفكر، ويظهر هذا جليا من خلال ما عرضنا من أمثلته فيما سبق وما فيها من إجابات تحمل شحنات تترك المتلقي يعيد النظر في تصوراته ومفاهيمه ومعتقداته وفق ما تلقاه في الجواب،

الذي فيه من أنواع المعارف والمفاهيم والإشارات المختلفة ما يقرر رؤية الإسلام لبعض تلك التصورات والمفاهيم السائدة في المجتمع، كما هو الحال في رؤية حقيقة البرّ التي عدّلها القرآن حين التساؤل عن الأهلة: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ سورة البقرة:، الآية: 189. فبين أن حقيقة البرّ تكمن في تقوى الله والخوف منه وليس الخوف من دخول البيوت من أبوابها بإتيانها من ظهورها أثناء الإحرام.

ومنها ما نراه يقرر حقيقة الإنسان وسرّ وجوده في الحياة وعلاقته بمن حوله ليفقه حقيقة الموت والحياة والبعث والجزاء، كما في قوله . تعالى .: ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**﴾ سورة يس، الآيات: 77 – 79

ومنها ما نراه يقرر قضايا الإيمان مثل البعث والجزاء والروح والساعة والقيامة والجنة والنار والملائكة والرسل والرسالات، وقضايا العبودية، وما يتعلق بعموم عالَم الآخرة، وبيان حقيقة العلم الإلهي، كما في الآيات التالية: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً**﴾ سورة الأعراف، الآية: 187.

﴿**وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ سورة يونس، الآيات: 48 – 49.

﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ سورة الإسراء، الآية: 85.

﴿**بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ كَلَّا لَا وَزَرَ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ**﴾ سورة القيامة، الآيات: 5 – 12. وغيرها من الآيات التي تبرز هذه الجوانب بطريقة أسلوب الحكيم بما فيه تربية المخاطَبين وتزكيتهم وتعليمهم ما يهمهم، وتسديد تصرفاتهم بالابتعاد عمّا لا شأن لهم به، وأن ينتبهوا لما هو أهم وأليق بحالهم وبما هو أولى لهم.

كما نرى في تقرير هذه الحقائق أن هناك قيمة أسلوبية أخرى تنبع من الوضوح الذي يكتسي الألفاظ المستعملة من حيث الدقة في الدلالة، والدقة في تحديد المقصود بما يتناسب ومكانتها، فلا تحدث غرابة عند المتلقي رغم ما تحدثه من مفاجأة.

كما نراه يأخذ قيمته الأسلوبية من الزيادة في الإفادة التي يقدمها للمتلقين بما يتناسب معهم، وبما هو لائق بهم، وبما هو أولى بحالهم، زيادة تخاطب العقل والوجدان تجعل المتلقي يعيد التفكير في المفهوم الذي يحمله أو السؤال الذي

يطرحه من جراء ما أثاره فيه أسلوب الحكيم من أحاسيس ومشاعر وأخيلة وتصورات جديدة بعثت على انفعاله وتفاعله مع الواقع الجديد.

كما أن من خلال هذه المعاني المتعددة تتجلى القيمة الأسلوبية لأسلوب الحكيم التي تبين أن الهدف هو التأثير في المتلقي ليدرك المراد منه ليقيم التوازن بين ما يعتقد ويتصور وبين ما عرض عليه من تلك المفاهيم والمعارف التي لم يكن يترقبها ولا يتطلبها، فيلجأ لاختيار ما هومناسب لحاله وأولى لمسيرته بعد التحاكم لعقله وضبط مشاعره وتصويب إرادته بتفاعله مع الخطاب، فتتشكل شخصيته الجديدة وتأهله للقيام بواجبه المطلوب، وهكذا تظهر القيمة الأسلوبية من هذا الأسلوب وما يؤدي إليه من تعميق الفكرة في نفس المخاطَب أو السائل فيترسخ المفهوم لديه وتتضح الصورة عنده، فما عليه إلا أن يتغير ويعيد النظر في طرحه.

الخاتمة:

ونحن نقف على نهاية البحث يمكننا رصد النتائج التالية:

أن أسلوب الحكيم ضرب من ضروب البلاغة العربية، تعرض له الأولون في علم المعاني ضمن مواضيع خروج الكلام لا على مقتضى الظاهر، ثم أصبح نوعا من أنواع المحسنات المعنوية في علم البديع، وقد كانت بداياته حين أشار له **الجاحظ** في البيان والتبيين، وأول من خصه بالحديث وسماه وقعد له، **السكاكي** في مفتاح العلوم، وأن نماذجه في القرآن الكريم على ما توصلنا إليه أربعون نموذجا.

أسلوب الحكيم نوعان، أولهما تلقي المخاطَب بغير ما يترقب، دون سؤال أو جواب، وذلك بحمل كلامه على خلاف مراده، وثانيهما ما يجيء في مقام السؤال والجواب، وهو تلقي السائل بغير ما يتطلب بالعدول عن الجواب، تنبيها لهما على الأهم والأولى بهما، أو قصد غرض آخر يريده المخاطِب.

يعتبر أسلوب الحكيم من الأساليب المعتبرة في التعبير القرآني ووجوه مخاطباته، له قيمته الأسلوبية وجماليته الفنية، وله أثره الأسلوبي على المتلقي، فهومن الأساليب الموجّهة إلى الّنفس، ليلهب مشاعرها، ويستثير كوامنها، ويشحذ تفكيرها ليصل إلى أعماقها فيثيرها ويؤثر فيها.

إن القيمة الأسلوبية لأسلوب الحكيم تكمن في التخالف الحاصل بين قصد المتلقي وبين ما يريده الملقي، بحمله لكلام المتلقي على دلالة أخرى مخالفة لقصده ومراده، مراعاة للحال والموقف، فيحدث بذلك مفاجأة تؤثر في المتلقي تؤدي إلى إثارته وشد انتباهه نحو الدلالة المقصودة.

كما أن القيمة الأسلوبية لأسلوب الحكيم تكمن في الانحراف بالصياغة من ظاهر إلى ما هو أولى وأهم، مع الزيادة في الإفادة، فتتكثف الدلالة في العمق، فيندفع السائل لمعرفة أسباب الانحراف ومقصد المتكلم.

كما أن القيمة الأسلوبية لأسلوب الحكيم في القرآن الكريم تبرز من تلقين المعرفة وإيقاظ الوعي وزيادة الفهم وتنشيط الفكر، مع الوضوح الذي يكتسي الألفاظ المستعملة من حيث الدقة في الدلالة، والدقة في تحديد المقصود بما يتناسب ومكانتها، فلا تحدث غرابة عند المتلقي رغم ما تحدثه من مفاجأة.

قائمة المصادر والمراجع:

1 – أحمد حسن المراغي: علم البديع، دار العلوم العربية، بيروت، ط: 1 سنة 1411 . 1991.

2 – أحمد عبد المطلب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت.

3 – جلال الدين القزويني، المعروف بخطيب دمشق (ت: 739هـ) الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل – بيروت، ط: 3.

4 – رفيق خليل عطوي: صناعة الكتابة (علم البيان، علم المعاني، علم البديع)، دار العلم للملايين، بيروت، ط: 1، سنة 1989.

5 – شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت: 1270هـ): روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المحقق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، ط/1، سنة: 1415 هـ.

6 – عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: 911هـ): لباب النقول في أسباب النزول، ضبط وتصحح: أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان.

7 – عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (المتوفى: 1425هـ): البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1416 هـ – 1996 م.

8 – عبد العزيز عتيق: علم المعاني والبيان والبديع، دار النهضة العربية، بيروت.

9 – عبد القادر عبد الجليل: الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية، دار الصفاء، عمان، ط/1، سنة: 2002م.

10 – عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ات: 471هـ): دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط:1،1422هـ – 2001 م.

11 – عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي أبو البركات: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تحقيق: مروان محمد الشعار، دار النفائس . بيروت، سنة: 2005م.

12 – علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي، أبو الحسن (ت: 468هـ): أسباب نزول القرآن، تحقيق: كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية – بيروت، ط/ 1، سنة: 1411هـ.

13 – عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الجاحظ، أبو عثمان (ت: 255هـ): البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، سنة: 1423 هـ.

14 – محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، أبو المعالي، بهاء الدين البغدادي (ت: 562هـ): التذكرة الحمدونية، دار صادر، بيروت، ط / 1، سنة: 1417 هـ.

15 – محمد رشيد بن علي رضا (ت: 1354هـ): تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة: 1990م.

16 – محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (المتوفى: 739هـ): الإيضاح في علوم البلاغة، المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل – بيروت، الطبعة: الثالثة.

17 – محمد الطاهر بن عاشور (ت: 1393هـ): التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدار التونسية للنشر – تونس، سنة: 1984 هـ.

18 – محمد محمد أبو موسى: خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، مكتبة وهبة، الطبعة: السابعة.

19 – نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تحقيق: الشيخ زكريا عميران، دار الكتب العلمية – بيروت، ط/1، سنة: 1416هـ – 1996م.

20 – يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد باللَّه (المتوفى: 745هـ): الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، المكتبة العنصرية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1423 هـ.

21 – يوسف بن أبي بكر السكاكي، أبو يعقوب (ت: 626هـ): مفتاح العلوم، ضبط وتعليق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 2، 1407 هـ – 1987 م.